سلسلة في ظلال السنة

الحديث الثاني

قسمة الأخلاق و الأرزاق

الدكتور

الشيخ سالم بن عبدالغني الرافعي

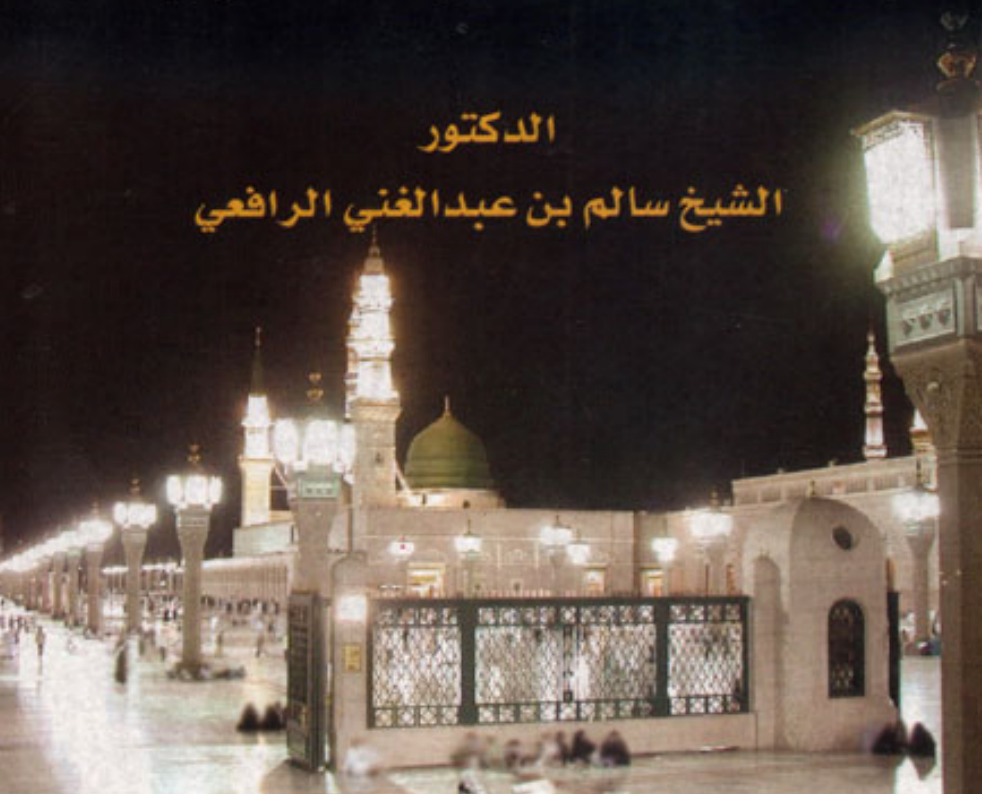

٢

قسمة الأخلاق والأرزاق

متن الحديث

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم. وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب**»(١).

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه (٣٣/١) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وأخرجه أحمد بأطول منه (٣٨٧/١) من طريق آخر عن ابن مسعود، ولكن فيه رجل ضعيف، وهو الصباح بن محمد، ولذا أعرضت عن سياق أحمد، واقتصرت على سياق الحاكم.

قال المنذري في الترغيب والترهيب (٥٥٠/٢): رواه أحمد وغيره من طريق أبان بن إسحاق عن الصباح بن محمد، وقد حسّنها بعضهم». وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٥٣/١) وقال: رواه أحمد ورجال إسناده بعضهم مستور وأكثرهم ثقات، كما أورده في موضع آخر بأطول منه (٢٩٢/١٠) وقال: رواه البزار وفيه من لم أعرفهم، وقد عقب عليه الحافظ ابن حجر بقوله: كلهم معروف والآفة من الصباح. كما ضعف إسناد أحمد أيضاً الشيخ أحمد شاكر في شرحه للمسند (٣٦٧٢/٥).

شرح الحديث

هذا حديث عظيم يعالج فيه النبي ﷺ قضيتين:

القضيّة الأولى هي: قضيّة الأخلاق، كيف نشأت وتولدت في الناس، وهل هي طِباع ثابتة لا تتغير أم أنها قابلة للتغيير؟

والقضيّة الثانية هي: قضيّة الغِنى والفقر، ومدى ارتباطهما برضى الله سبحانه وتعالى أو سخطه.

وهاتان القضيّتان كانتا ولا تزالان تشغلان حيّزاً عظيماً في التفكير الإنساني، وقد خاض المفكّرون والمربّون فيهما قديماً وحديثاً، وكان لهما أعمق الأثر في حياة الناس وسلوكهم.

وسنأتي على هاتين القضيّتين بشيء من التفصيل، مُفرِدين البحث في كل قضيّة منهما على حِدة، مستعينين الله تعالى على التوفيق بمنّه وكرمه.

قضيّة الأخلاق

➢ كيفية نشأتها:

قوله ﷺ: «**إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم**» معناه: أنكم كما تعلمون أن الأرزاق مقسّمة بين العباد، قدّرها الله تعالى بينهم بعلمه السابق، فجعل هذا غنياً وذاك فقيراً، كذلك الأخلاق مقسّمة بين العباد، قدّرها الله تعالى بينهم بعلمه السابق، فوهَبَ بعضَهم صفاتٍ طيّبة لم يكتسِبوها بجُهدهم، وحُرِم منها أُناسٌ آخرون.

وقد جاء بيان هذا المعنى في حديث آخر، رواه أبو داود في سُننه عن أبي الوازع، وكان في وفد عبد القيس، قال: لما قدِمنا المدينة، فجعلنا نتبادر من رواحِلنا، فنقبّل يد النبي ﷺ ورِجله، قال: وانتظر المنذر الأشجّ حتى أتى عَيْبَته[1]، فلبس ثوبَيه ثم أتى

(١) العَيبة ـ بالفتح ـ هي ما يجعل فيه الثياب، كما في لسان العرب.

النبي ﷺ، فقال له: «**إن فيك خَلّتين يحبّهما الله: الحِلم، والأناة**»[١]. قال: يا رسول الله، أنا أتخلّق بهما أم الله جَبَلني عليهما؟ قال: «**بل الله جبلك عليهما**»، قال: الحمد لله الذي جبلني على خَلّتين يحبهما الله ورسوله[٢].

قال ابن حزم رحمه الله: «واعلم بأنك إن تعلمت كيفية تركيب الطبائع، وتولّد الأخلاق، من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس، فستقف من ذلك وُقوفَ يقين على أن فضائلك لا خَصلة لك فيها، وأنها مِنح من الله تعالى لو منحها غيرَك لكان مثلك، وأنك لو

---

(١) قال النووي رحمه الله في شرحه لمسلم (١/١٨٩): «أما الحِلم فهو: العقل. وأما الأناة فهي: التثبت وترك العجلة. وسبب قول النبي ﷺ ذلك له: ما جاء في حديث الوفد، أنهم لما وصلوا المدينة بادروا إلى النبي ﷺ، وأقام الأشج عند رحالهم فجمعها وعقل ناقته ولبس أحسن ثيابه ثم أقبل إلى النبي ﷺ فقرّبه النبي ﷺ وأجلسه إلى جانبه».

(٢) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في الأدب: باب في قُبلة الرِجل (٥/٣٩٥)، وحسّنه ابن عبدالبر في الاستيعاب (١/٥٦٩)، كما حسن الألباني الشطر الأول منه دون ذكر الرِجلين، وصحّح الشطر الثاني منه ـ وهو شاهدنا من الحديث ـ في صحيح أبي داود برقم (٥٢٢٥). كما روى أصل هذا الحديث مسلم في كتاب الإيمان برقم (٢٥).

وكِلت إلى نفسك لعجزت وهلكت. فاجعل بدل عُجبك بها حمداً للواهب لك إياها، وإشفاقاً من زوالها، فقد تتغير الأخلاق الحميدة بالمرض، وبالفقر، وبالخوف، وبالغضب، وبالهرم. وارحم من مُنع ما مُنحت. ولا تتعرض لزوال ما بك من النّعم بالتعاطي على واهبها تعالى، وبأن تجعل لنفسك فيما وهب خصلة أو حقاً، فتقدّر أنك استغنيت عن عصمته، فتهلك عاجلاً وآجلاً»[1].

➢ قابلية الأخلاق للتغيير:

غير أن العلم بهذه الحقيقة، وهي أن الله سبحانه وتعالى قد قسم الأخلاق وقدّرها بين الناس، لا يعني أن يَقنع المرء بالأخلاق الدنيئة معتذراً بأنها نصيبه وقسمته من الأخلاق، لأن المرء لا يعلم حقيقة ما قُسم له في علم الله. وكما أنه لا ينبغي لمن كان في ضيق من العيش أن يترك السعي للاكتساب، بحجة أن الأرزاق مقدّرة، وأن الله تعالى لم يقدّر له الغنى، لأن هذا لا يدرك علمه. فالمرء قد يقدّر عليه الفقر لفترة، ثم يقدّر الله له الغنى، فالمقدّر غيب لا يمكن إدراكه. ولهذا

(١) الأخلاق والسير: ١٦٢.

أُمر الناس بالسعي لاكتساب الرزق وطلب المعيشة، ونُهوا أن يتخذوا من أقدارهم ذريعةً لترك العمل. كذلك الأخلاق، فالناس مأمورون باكتساب الأخلاق الفاضلة، ومنهيون عن الركون إلى سيء الأخلاق معتذرين بالأقدار، فإن المقدّر مخبوء لا يعلمه إلا الله.

ومن هنا كانت الأرزاق والأخلاق من هذا الجانب متشابهة، لذلك جمع النبي ﷺ بينهما بحرف التشبيه.

ولمّا رأينا الشارع الحكيم قد علّق الأجر العظيم على تحسين الأخلاق، دلّنا هذا أن اكتساب الأخلاق الكريمة عمل يرجع إلى إرادة المكلف واختياره، فإن الثواب لا يعلّق إلا على الأعمال التي فيها اختيار للمكلف.

فالأخلاق قابلة للتحسين والتغيير، شأنُها شأن الأرزاق. فكما أن المرء إذا ضاق عليه عيشه سعى بكل سبب لتحسينه، كذلك من ساء خلقه، عليه أن يسعى بكل وسيلة إلى تحسين خلقه. ولو كانت الأخلاق لا تقبل التحسين، لما أمر الشرع بتحسينها، ولكانت المواعظ والوصايا المتعلقة بذلك عبثٌ لا طائل تحته، وهذا مما ينزه عنه الشرع الحكيم.

ومن الوصايا في ذلك، ما رواه أبو أمامة الباهلي

أن النبي ﷺ قال: «**أنا زعيم**[١] **ببيت في رَبَض الجنة لمن ترك المِراء وإن كان محقاً، وببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسَّن خلقه**»[٢].

وقال الغزالي رحمه الله: وكيف يُنكر هذا (أي: تغيير الخلق) في حق الآدمي، وتغيير خلق البهيمة ممكن، إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأُنس، والكلب من شَرَه الأكل إلى التأدّب والإمساك والتخلية، والفرس من الجِماح إلى السَلاسة والانقياد، وكل ذلك تغيير للأخلاق[٣].

➢ حُسن الخلق ومرتبته بين الأعمال الصالحة:

يعتقد كثيرٌ من الناس أن حُسن الخلق مقصور على بشاشة الوجه وحلاوة اللسان وإكرام الضيف، والحقيقة أن الأمر أوسع من ذلك وأصعب. فحسن الخلق يقتضي تهذيبَ النفس من أمراضها، كالحسد، والحِقد،

---

(١) الزعيم هو: الضامن.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (١٥٠/٥) وصحّحه النووي في رياض الصالحين برقم (٦٣٥)، وحسّنه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٤٨٠٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٥٦/٢).

والغضب، والكِبر، والعُجب، والجُبن، والبخل، ونحوها من الصفات الذميمة.

وقد بيّن النبي ﷺ أن هذه الأدواء أو بعضها تفتِك بالقلب حتى تُخرج منه الإيمان أو تكاد، كما تمنع صاحبَها من دخول الجنة.

ومن البيان قوله ﷺ: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرّة من كِبْر**»(١).

وقال عليه الصلاة والسلام: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنّم في وجه رجل أبداً. ولا يجتمع الشّح والإيمان في قلب عبدٍ أبداً**»(٢).

وقال أيضاً ﷺ: «**لا يجتمعان في النار مسلم قتل كافراً ثم سدّد وقارب. ولا يجتمعان في جوف مؤمن غبار في سبيل الله وفيح جهنم. ولا يجتمعان في قلب عبدٍ الإيمان والحسد**»(٣).

فمن ابتُلي بشيء من هذه الأمراض، وجب عليه

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان: باب تحريم الكبر برقم (١٤٧).

(٢) أخرجه النسائي في الجهاد: باب فضل من عمل في سبيل الله على قدمه، من حديث أبي هريرة، وصححه الألباني في صحيح النسائي برقم (٢٩١٤).

(٣) أخرجه النسائي في المكان السابق، وحسنه الألباني في صحيح النسائي برقم (٢٩١٢).

أن يبادر إلى علاجها، ويجعلها شغلَه الشاغل، قبل أن تفتِك بإيمانه. فإصلاح النفس والاشتغال به، مقدّم على الاشتغال بنوافل العبادات. لأن بقاء هذه الأمراض في القلب مزعجٌ للإيمان فيه ومُزلزلٌ له.

نعم إن النوافل تقوّي الإيمان، كما ذكر علماء أهل السنة: أن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية. وهذا إذا كان الإيمان مبنياً على قواعد صُلبة، من رسوخ التوحيد، ثم خلوّ محل الإيمان، وهو القلب، من الأمراض الفتّاكة. أما إذا بُني الإيمان على قواعد منخورة بالأمراض الفتّاكة، فالنوافل لا تزيده صلابة إلا إذا كانت هي الدواء المناسب لهذه الأمراض، وهذا قد يتلاءم مع بعض الأمراض وليس مع جميعها.

ودليل ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رجل: يا رسول الله، إن فلانة ـ يذكر من كثرة صلاتها وصيامها وصدقتها ـ غير أنها تؤذي جيرانها بلسانها؟ قال: «**هي في النار**». قال: يا رسول الله، فإن فلانة ـ يذكر من قِلة صيامها وصدقتها وصلاتها ـ وأنها تَصَدَّق بالأثوار من الأقِط[1]، ولا تؤذي

(١) الأثوار: جمع ثوْر، وهي القطعة العظيمة من الأقط. والأقِط: شيء يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك حتى يمصل، كما في اللسان.

جيرانها بلسانها؟ قال: «**هي في الجنة**»[١].

فالمرأة الأولى التي ذُكرت للنبي ﷺ، وذَكَر أنها في النار، كانت كثيرة النوافل من صلاة وصيام وصدقة، ولكنها كانت سليطة اللسان تؤذي جيرانها بلسانها، فلم تمنعها كثرةُ نوافلها من دخول النار، لأن السيئات التي تسبّبها سَلاطة اللسان وإيذاء الجيران أعظم وأرجح في الميزان من الحسنات التي تورثها هذه النوافل. وأما المرأة الثانية فكانت قليلة النوافل، وورد في روايةٍ عند الحاكم تفصيلٌ أكثر لعبادتها، حيث قال: «إن فلانة تصلي المكتوبة وتصوم رمضان وتتصدق بالأثوار وليس لها شيء غيره، ولا تؤذي أحداً؟ قال: **هي في الجنة**». فانظر إلى هذه المرأة كيف صارت من أهل الجنة مع قلة نوافلها، وذلك حين سلِمت من سوء الأخلاق.

ومن هنا كان الاشتغال بتصفية القلب من أدرانه واكتساب مكارم الأخلاق، أوجب من الاشتغال بالنوافل.

وأؤكد هذا المعنى بدليل آخر حتى يطمئن القارئ إلى صحة ما رمَيْنا إليه.

---

(١) أخرجه أحمد (٢/٤٤٠) بلفظه، والحاكم (٤/١٦٦) بنحوه، وصححه، ووافقه الذهبي، وأورده الهيثمي في المجمع (٨/١٦٩) وقال: رواه أحمد والبزار ورجاله ثقات.

روى أنس بن مالك قال: «كنا جلوساً مع رسول الله ﷺ فقال: «**يطلُع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة**». فطلَع رجل من الأنصار تنطِف لحيته من وضوئه، قد تعلّق نعليه في يده الشمال. فلما كان الغدُ، قال النبي ﷺ مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى. فلما كان اليوم الثالث، قال النبي ﷺ مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى. فلما قام النبي ﷺ، تبعه عبدالله بن عمرو فقال: إني لاحَيْت أبي[١] فأقسمت أن لا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تُؤويني إليك حتى تمضي فعلت؟ قال: نعم. قال أنس: وكان عبدالله يحدث أنه بات معه تلك الليالي الثلاث، فلم يرَه يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارّ[٢] وتقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبّر، حتى يقوم لصلاة الفجر. قال عبدالله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً. فلما مضت الثلاث ليالٍ وكِدت أن أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله إني لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هُجْر[٣] ثمّ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول لك ثلاث مرار:

---

(١) لاحَيْت أبي: أي خاصمته، من الملاحاة.

(٢) قال ابن الأثير في النهاية: تعارّ من الليل أي: هبّ من نومه واستيقظ.

(٣) الهُجْر: القبيح من الكلام، كما في اللسان.

«**يطلع عليكم الآن رجلٌ من أهل الجنة**»، فطلعت أنت الثلاث مرار، فأردت أن آوي إليك لأنظر ما عملك فأقتدي به، فلم أرك تعمل كثير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله ﷺ؟ فقال: ما هو إلا ما رأيت. قال: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسُد أحداً على خيرٍ أعطاه الله إياه. فقال عبدالله: هذه التي بلغت بك، وهي التي لا نُطيق»[1].

فهذا رجلٌ بلغ به عمله أن بُشّر بالجنة في الحياة الدنيا. وقد تبادر إلى ذهن عبدالله بن عمرو رضي الله عنه أنه ما بلغ هذه المنزلة إلا بكثرة صلاته وتهجّده، لذلك أحب أن يراقبه عن كَثب ليتعرف على عبادته، فيقتدي به، فلم يجد ما توقعه. ولفت نظره أن الرجل إذا تقلب في فراشه ذكر الله، وأنه حافظ للسانه فلا يقول

(١) أخرجه أحمد (١٦٦/٣) بلفظه، وأورده الهيثمي في المجمع (٧٨/٨) وقال: رواه أحمد والبزار بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي البزار. كما أورده ابن كثير عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾ ونسبه للإمام أحمد، ثم قال: ورواه النسائي في اليوم والليلة عن سويد بن نصر عن ابن المبارك عن معمر به، وهذا إسناد صحيح على شرط الصحيحين.

إلا خيراً، فهذا ما ظهر له من عمله، وهو غير كافٍ في نظر عبدالله ليبلغ ما بلغ، أن يخبر عنه رسول الله ﷺ ثلاث مرات أمام أصحابه أنه من أهل الجنة. فاحتار عبدالله في أمره، ثم دفعه حرصه على معرفة العمل الذي أوصله إلى هذه المنزلة أن يصارحه بما في نفسه. فلما صارحه بيّن له الرجل أن المرتبة التي نالها لم تكن بكثرة صلاة أو صيام، وإنما هي بتطهير قلبه من الغش والحسد.

وليس في هذا المعنى تقليل من أهمية الصلاة، وخاصة صلاة الليل، وإنما فيه بيان وجوب الاشتغال بالأهم فالمهم من معالي الأمور. فمن كان عليل القلب بداء الغش والحسد، لا ينبغي أن يترك قلبه بلا علاج، ويعتاض عنه بتكثير النوافل، لأن النوافل وإن كانت من موجبات الجنة، فإن تلك الأدواء من موجبات النار، فإذا تجاذبت الموجبتان، قد ترجح موجبات النار على موجبات الجنة، بسبب عِظم ضررها وتعدّي خطرها. فالواجب على من ابتُلي بهذه الأدواء أن يبادر إلى علاجها أولاً، باتباع الوسائل الناجعة والرياضات المناسبة التي ذكرها العلماء، ثم يتفرغ بعد ذلك إلى الاشتغال بالنوافل. وأما إن تمكن من الجمع بين الحسنيين فلا شك أنه أفضل.

وأختم التدليل لهذا المعنى بحديث عظيم، يبين فيه النبي ﷺ المنزلة التي يبلغها في الآخرة من اعتنى بتحسين أخلاقه في الدنيا ولو كان قليل النوافل. روى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن العبد ليبلغ بحسن خلقه عظيم درجات الآخرة وشرف المنازل وإنه لضعيف العبادة، وإنه ليبلغ بسوء خلقه أسفل درجة في جهنم**»[(١)].

ولا نستغرب هذا الاهتمام البالغ الذي أَوْلته الشريعة لقضيّة الأخلاق، فإن حسن الخلق عصمة للمجتمع من التردّي في المهالك. إذ أن سوء الأخلاق مرض يفتك بالفرد أولاً، ثم يتعداه إلى الفتك بالمجتمع كله، حتى يصير المجتمع المسلم مجتمعاً مفككاً ومتنافراً، تعلوه الكراهية والضغينة والذلة، نتيجة الحسد والحقد والجبن في قلوب أفراده.

ولا بأس من سرد بعض أحاديث النبي ﷺ كي نستجلي بها هذه الحقيقة أكثر فأكثر.

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إياكم والظنّ، فإن الظنّ**

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١/٢٦٠)، وجوّد إسناده الحافظ العراقي في تخريجه للإحياء (٣/٥١)، وقال المنذري في الترغيب والترهيب (٣/٤٠٤): رواه الطبراني ورواته ثقات سوى شيخه المقدام بن داود، وقد وُثق.

أكذب الحديث، ولا تحسّسوا، ولا تجسّسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا كما أمركم، المسلم أخو المسلم: لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره. التقوى هٰهنا، التقوى هٰهنا ـ ويشير إلى صدره ـ **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم. كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»**[(١)].

وروى أبو الدرداء أن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**»[(٢)].

وسئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة؟ فقال: «**تقوى الله وحسن الخلق**». وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار؟ فقال: «**الفم والفرج**»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة بروايات متعددة برقم (٢٥٦٣) وما بعده، كما أخرج البخاري أكثره في الأدب: باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر برقم (٦٠٦٤) وما بعده.

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٣٦٢/٤) وقال: حديث حسن صحيح، كما صححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٦٢٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٦٣/٤) من حديث أبي هريرة وقال: حديث صحيح غريب، وحسن إسناده الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٦٣٠).

➢ مدى تحقق هذا المعنى في حياتنا:

من الأخطاء الظاهرة في مجتمعاتنا اليوم التي تمسّ الحاجة إلى بيانها: أنك ترى بعض الناس يجتهد بالتزام هدي النبي ﷺ في الأمور الظاهرة، ويترك الالتزام بهديه ﷺ في مكارم الأخلاق.

فتجده حريصاً على الاقتداء بالنبي ﷺ في نوافله وهيئته ولباسه ومأكله ومشربه، ولكنك إذا صحبته وجدته حادّ الطبع، شديداً على إخوانه، سيء الظنّ بهم، معجباً بنفسه. وقد انتشر هذا في الشباب، وخاصة في طلبة العلم الشرعي، حتى صار البعض يعتقد أن الحِدّة والشّدة من دواعي الالتزام والتمسك بالسنة. وهذا لعمري تشويه لسنته ﷺ وتحريف للدين. فالدين الصحيح لا يقوم على التمسك بهدي النبي ﷺ في اللباس والهيئة، ثم يُهجر هديُه في مكارم الأخلاق، وإنما يقوم على التمسك بهديه ﷺ كاملاً غير منقوص.

فعلى الشباب المؤمن أن يبادر إلى تهذيب نفسه، ويجعله شُغله الشاغل حتى نرسم صورة حسنة عن الإسلام في حياة الناس.

وقد دَأَب الصالحون على تهذيب أنفسهم وتنقيتها من خبائثها، وبذلوا جلّ أوقاتهم وهِمَمِهم في هذا

السبيل، لأن صلاح القلب وسلامة الصدر بعد سلامة العقيدة، هما الأساس الذي يُبنى عليه العمل الصالح.

➢ خطوة في طريق التغيير:

واعلم أن طريق تهذيب النفس وَعِر، ويحتاج إلى كثير من الصبر والمصابرة، ولكن إذا تبين لك جميلُ أثره في الدنيا والآخرة، هانت أمام عينيك المصاعب.

ولقد أحببت أن أورد نبذة من سيرة العلماء الذين سلكوا هذا الطريق، لنرى كيف اجتهدوا على أنفسهم بالمعالجة، ثم كيف جرؤا أن يبيّنوا عيوب أنفسهم من أجل تعليم الناس.

قال ابن حزم رحمه الله: كانت فيّ عيوب فلم أزل بالرِّياضة، واطلاعي على ما قالت الأنبياء صلوات الله عليهم، والأفاضل من الحكماء المتأخرين والمتقدمين في الأخلاق وفي آداب النفس، أعاني مداواتها حتى أعان الله عز وجل على أكثر ذلك بتوفيقه ومَنّه. وتمام العدل، ورياضة النفس، والتصرف بأزمّة الحقائق، هو الإقرار بها، ليتعظ بذلك متعظ يوماً إن شاء الله.

فمنها: كَلف[1] في الرضى، وإفراط في الغضب،

(١) كلف في الرضى: أي مبالغة فيه.

فلم أزل أداوي ذلك حتى وقفت عند ترك إظهار الغضب جملة، بالكلام والفعل والتخبّط، وامتنعت مما لا يحلّ من الانتصار. وتحمّلت من ذلك ثِقلاً شديداً، وصبرت على مضض مؤلم كان ربما أمرضني. وأعجَزني ذلك في الرضى، وكأني سامحت نفسي في ذلك، لأنها تمثلتْ أن ترك ذلك لؤم.

ومنها: دعابة غالبة، فالذي قدرت عليه فيها إمساكي عما يغضب المَمَازَح، وسامحت نفسي فيها، إذ رأيت تركها من الانغلاق، ومضاهياً الكبر.

ومنها: عُجب شديد، فناظر عقلي نفسي بما يعرفه من عيوبها، حتى ذهب كله، ولم يبق له والحمد لله أثر، بل كلفت نفسي احتقار قدرها جملة واستعمال التواضع.

ومنها: حركات كانت تولدها غَرارة الصِّبا، وضعف الأعضاء، فقصرت نفسي على تركها فذهبت.

ومنها: محبة في بُعد الصِّيت والغَلبة، والذي وقفت عليه من معاناة هذا الداء الإمساك فيه عما لا يحل في الديانة، والله المستعان على الباقي. مع أن ظهور النفس الغضبية إذا كانت منقادة للناطقة فضلٌ وخلق محمود.

ومنها: إفراط في الأَنَفة بغَّضت إلي إنكاح الحُرَم جملة بكل وجه، وصعَّبت ذلك في طبيعتي، وكأني

توقفت عن مغالبة هذا الإفراط الذي أعرف قُبحه لعوارض اعترضت عليّ، والله المستعان.

ومنها: عيبان قد سترهما الله تعالى وأعان على مقاومتهما، وأعان بلطفه عليهما، فذهب إحداهما البتّة ولله الحمد، وكأن السعادة كانت موكلةً بي، فإذا لاحَ منه طالع قصدتُ طمْسَه. وطاولني الثاني منهما، فكانت إذا ثارت منه مدودُه، نبضت عروقُه فيكاد يظهر، ثم يسّر الله تعالى قدْعَه بضروبٍ من لطفه تعالى حتى أخلدا.

ومنها: حِقد مفرِط، قدرت بعون الله تعالى على طيِّه وسَتْره وغَلبَتِه على إظهار جميع نتائجه. وأما قطعه البَتّة فلم أقدر عليه، وأعجَزني معه أن أصادق من عاداني عداوةً صحيحة أبداً.

ثم قال رحمه الله: ووجدت أفضلَ نِعم الله تعالى على العبد أن يطبَعه على العدل وحبّه، وعلى الحق وإيثاره، فما استعنت على قَمْع هذه الطوالح الفاسدة، وعلى كل خير في الدين والدنيا، إلا بما في قوتي من ذلك، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى[1].

❀ ❀ ❀ ❀

(١) الأخلاق والسير (١٠٧ ـ ١١٣).

قضية الغنى والفقر ومدى ارتباطهما برضى اللّه أو سخطه

بعد بيان قضيّة الأخلاق، أرشد النبي ﷺ إلى قضيّة أخرى، لا تقلّ عنها أهمية، وهي قضية الغنى والفقر ومدى ارتباطهما برضى الله سبحانه وتعالى أو سخطه. فقال ﷺ: «**إن الله يعطي الدنيا من يُحبّ ومن لا يُحبّ**». وهذه الكلمة تضمّنت رداً على ما كانت العرب تعتقده في جاهليتها.

فالعرب كانت تعتقد أن توسعة الرزق على العبد دليل على محبة الله له ورضاه عنه، وأن تضييق الرزق على العبد دليل على بغض الله له وسخطه عليه. فردّ عليهم ﷺ هذه العقيدة، وبيّن أن لا ارتباط بين العطاء والمحبة، فالله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، فليس عطاؤه دليلاً على رضاه، ولا منعُه دليلاً على سخطه. وعقيدة العرب تلك لم تكن مخصوصة بهم، بل هي عقيدة اصطبغَت بها القلوب الجاهلة على مدى العصور، ولم يَسلم منها إلا من استضاء بأنوار النبوات.

➢ النظرة المادية وسببها:

وقد بيّن الله تعالى في القرآن هذه العقيدة، وجعلها وصفاً قائماً بالإنسان الذي لم يتخلّق بصفات الإيمان، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾[1]. فلفظ الإنسان في القرآن يُطلق على الجاهل بربه، الذي لم تتهذب روحُه بمعرفة الله ومحابِّه ومكارهه، ولم يزكِ نفسه حتى غلبت عليها الصفات الذميمة. كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾﴾[2]. لذلك استثنى الله سبحانه وتعالى المؤمنين الذين تهذّبت أرواحهم وزكَت أنفسهم من جنس الإنسان، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾﴾ الآيات[3].

ومن صفات الإنسان الجاهل بربه أنه: إذا منّ الله تعالى عليه برزق واسع وأغدق عليه من

---

(١) الفجر: ١٥ ـ ١٦.

(٢) العاديات: ٦ ـ ٧.

(٣) المعارج: ١٩ ـ ٢٥.

نعمه، رأى في ذلك دليلاً على محبة الله له وإكرامه إياه، وإذا ضيّق عليه رزقه وابتلاه بالمصائب، رأى في ذلك دليلاً على بغض الله له وإهانته إياه. فردّ الله تعالى على الجَهَلة هذه النظرة وردَعَهم عنها بقوله: ﴿كَلَّآ﴾ أي: ليس الأمر كما تتصورون أو تتوهمون. ثم قال: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾[1]، وهنا خاطبهم الله سبحانه وتعالى مبيّناً لهم السبب الذي حملهم على هذه النظرة، والشواهد التي تشهد على ذلك من سلوكهم وتصرفاتهم. فهذه النظرة للأمور أتتهم من حبّهم الشديد للمال وتعلقهم به حتى صاروا لا يرون السعادة ولا الأشياء الجميلة إلا من خلال وَفرة المال. حتى مرضاة الله سبحانه وتعالى تراءَوها من منظار المال والنّعم التي أغدقها الله عليهم، فمن أُنعم عليه بالمال والولد وسائر النعم، فهو المرضيّ عند ربه، ومن حُرم ذلك فهو المُبْعَد عن جَنابه.

ويشهد لذلك: إهانتهم لليتامى وعدم إكرامهم لهم،

(١) الفجر: ١٧ ـ ٢٠.

لضعفهم وعدم الاستفادة الماديّة منهم. وشاهد آخر: أنهم لا يحضّون أنفسهم ولا غيرهم على إطعام المساكين، لأنهم لا يرجون من ورائهم نفعاً مادياً. وآخر أنهم يأكلون الميراث أكلاً كبيراً، فيلمّون نصيب ضعفاء الورثة من الأطفال والنساء إلى أموالهم.

آثار النظرة المادية

وهذه النظرة المادية للحياة لم تكن مجرد فلسفة نظرية، تداولها الناس في منتدياتهم الثقافية أو في مجالسهم الأدبية دون أن يكون لها ثمرة عملية في حياتهم. بل على العكس من ذلك، فقد تركت هذه النظرة آثارها في مختلف نواحي الحياة، وصَبَغت الأمم الجاهلة التي اتصفت بها بصبغة واحدة على مرّ العصور والأيام.

وسنعرض عليك بإذن الله بعضاً من آثار هذه النظرة، ليس في حياة العرب وحدهم، بل في حياة أممٍ سبقت لم يكن للعرب بهم صلة أو تواصل ثقافي.

لما بُعث النبي ﷺ في قومه، آمن به ضعفاء الناس، وكفر به كثير من الأشراف والأغنياء. والسرّ في إعراض الأغنياء عن دعوته ﷺ، راجع إلى النظرة المادية التي ذكرناها. فالغني الذي فهم من وراء مدّ الله له بالمال والنعم، شديدَ محبّته له، لم يكن يتصوّر أن

يخصّ الله بالنّبوة، والتي تمثل في نظره منتهى الجاه والقرب من الله، رجلاً فقيراً ليس أهلاً لعَطائه سبحانه. قال تعالى مبيّناً ذلك عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٖ ٣١﴾[1]، أي: هلّا نزّل هذا القرآن على رجل شريف ذي مكانة في قومه، مثل الوليد بن المغيرة في مكة، أو عروة بن مسعود في الطائف، فمثل هذا يستحق النبوة، إذ بلغ في الجاه والغنى مبلغاً، وليس اليتيم الفقير المحروم من نعم الله عليه. وزاد في نفورهم أيضاً اتباع الفقراء له ﷺ، فتأكّد في نَظرهم أن هذا الدّين لو كان فيه خير، لما رغب فيه كل فقير محروم من فضل الله ومحبّته، وزهِد فيه كل غني موصول بنعم الله ورضاه. قال تعالى في ذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡ كَانَ خَيۡرٗا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيۡهِۚ﴾[2].

ولم تكن حال الأمم الجاهلة قبل بعثته ﷺ بأحسنَ من حال العرب، فقد تشابهت مواقفهم حيال أنبيائهم بسبب تشابههم في النظرة المادية. وقد بيّن الله سبحانه شيئاً من مواقفهم واحتجاجاتهم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ

(١) الزخرف: ٣١.

(٢) الأحقاف: ١١.

أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾[1]. فاحتج المُترَفون، وهم أهل المال والثروة، المتنعّمون بألوان المطاعم والمشارب والملابس والمراكب، على بطلان دعوة الرسل بما آثرهم الله به على أتْباع الرسل من بسْطة في المال والولد، مما يدلّ في ظنّهم على إيثار الله لهم بالمحبة والقرْب على أولئك المحرومين، ولو كانت دعوة الرسل خيراً لتعدّى إيثار الله لهم إليها أيضاً.

ومن آثار هذه النظرة في حياة الماديين، أن مقياس الاحترام والتقدير بينهم صار مرجعه إلى المال، فالمرء يُكرم أو يُهان في نظرهم بناءً على غناه أو فقره.

روى سهل بن سعد الساعدي قال: مرّ رجل على رسول الله ﷺ فقال لرجل عنده جالس: «**ما رأيك في هذا؟**»، فقال: رجلٌ من أشراف الناس، هذا والله حريّ إن خَطب أن يُنكح، وإن شفَع أن يُشفّع. قال: فسكت رسول الله ﷺ. ثم مرّ رجلٌ فقال له رسول الله ﷺ: «**ما رأيك في هذا؟**»، فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حَرِيّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن

(١) سبأ: ٣٤ ـ ٣٥.

شَفع أن لا يُشفّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا خير من ملء الأرض من مثل هذا**»[١].

فالرسول ﷺ سأل رجلاً من أصحابه عن رجلين: أحدهما غنيّ والآخر فقير. فأجابه بما كان معتاداً من شأن أهل الجاهلية، من رِفعة من كان كثير المال ولو كان وضيعاً، وضَعَة من كان مُقِلاً ولو كان عزيزاً. فهنا علمه النبي ﷺ خطأ الميزان الذي كان أهل الجاهلية يعتمدونه، وأن معيار التفضيل عند الله هو التقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[٢]، وأطلع الله نبيّه أن هذا الفقير كان أكرم عند الله من ذاك الغني بألف مرّة.

(١) أخرجه البخاري في الرقاق: باب فضل الفقر برقم (٦٤٤٧).

(٢) الحجرات: ١٣.

نظرة الإسلام لقضيّة الغنى والفقر

بعد أن بيّنّا نظرة الماديين لقضيّة الغنى والفقر، وموقف الإسلام منها، يجدُر بنا أن نبيّن نظرة الإسلام في هذه المسألة.

فالإسلام يرى أن لا ارتباط بين العطاء والمحبة، ولا بين المنع والسُّخط، وإنما يبسط الله الرزق أو يضيّقه لحكمةٍ عنده. قال تعالى في مَعرِض الردّ على الماديين الذين ربطوا بين العطاء والمحبة فقالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1]، قال: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]، أي: إن بسط الرزق وتضييقه راجع إلى مشيئة الله وحكمته التي يجهلها أكثر الناس. ثم بيّن بطلان نظرتهم بقوله: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى

(١) سبأ: ٣٥.

(٢) سبأ: ٣٦.

تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾[١]، وأردف ذلك ببيان ما يقرّب عنده فقال: ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٢].

إذاً الله سبحانه وتعالى يبسط الرزق أو يضيّقه لحكمةٍ عنده، وليس لما يتقوّله الجاهلون أو يتصوّرونه. فما هي هذه الحكمة؟

(١)(٢) سبأ: ٣٧.

حكمة الله في بسط الرزق

يمكن استشفاف هذه الحكمة من خلال استعراضنا لجملة من الآيات والأحاديث. فالحكمة ينبغي استنباطها من النصوص، ولا يصح التخرّص في هذا الباب بالأوهام والظنون.

ومن خلال تتبّعنا للنصوص الشرعية ولأقوال السّادة العلماء، وجدنا أن تلك الحكمة تتجلى في صور عديدة منها:

➢ الصورة الأولى: أن الله سبحانه وتعالى قد يوسّع الرزق على عبده تعجيلاً لطيباته في الحياة الدنيا.

ما معنى هذه الصورة، وما هي أدلتها؟

بعض الناس يعمل الموبِقات ويتوسّع في ارتكابها حتى يُغرق فيها، لا يبالي بقِيَم ولا تردَعُه موعظة، غير أنه لم ينسَ في خِضمّ المعاصي أن يقوم ببعض الأعمال

الصالحات من حين لآخر يبتغي بها وجه الله. فتقضي مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يجازيَه على حسناته في الدنيا بسعةٍ في الرزق أو عافيةٍ في البدن، حتى إذا وافى اللَّهَ يوم القيامة، وافاه بحسناتٍ قد استوفى أجرَها في الدنيا، وبسيئاتٍ موفورةٍ لم يعاقَب عليها في الدنيا فيُجازى بها في الآخرة.

فتعجيل الطيّبات في حق هذا العبد يُراد به: ما عُجّل له من أفراح ومسرّات في هذه الحياة مجازاةً على أعماله الصالحات.

ودليل ذلك ما رواه أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أراد الله بعبده الخير عجّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد الله بعبده الشرّ أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة**»[1].

فتعجيل الطيّبات استدراج من الله، قد يُبتلى به المسلم كما يبتلى به الكافر، إلا أن الفرق بينهما أن الكافر يُخلد في نار جهنم بخلاف المسلم.

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد: باب ما جاء في الصبر على البلاء (٦٠١/٤) وقال: حسن غريب. وقال الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٩٥٣): حسن صحيح.

➢ تعجيل الطيّبات في حق الكفار:

الكفار ليسوا على درجة واحدة في السوء. فمنهم كفار جمعوا إلى كفرهم إفساداً في الأرض وصدّاً عن سبيل الله. ومنهم من اقتصر على الكفر، وله أعمال برّ وإنسانية عملها ابتغاء وجه الله، من رفقٍ بيتيم أو عطفٍ على أرملةٍ ومسكين أو غيرها من أعمال الخير، فليس حكمهما في الآخرة سواء.

فالفريق الأول يعذّب في الآخرة على الكفر، ثم يُزاد من عذابه بسبب الصدّ عن سبيل الله والإفساد في الأرض. قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾[1].

وأما الفريق الآخر، فيُعاقب في الآخرة على كفره، وأما الحسنات التي عملوها فيجازيهم الله عليها في الدنيا، إما بتوسعةٍ في الرزق أو مدّ بالعافية أو غير ذلك من مسرّات الحياة.

ويستدل لهذه المسألة بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ

(١) النحل: ٨٨.

﴿ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾[١]. فقوله تعالى: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ﴾... أي: جزيناكم على أعمال البِرّ التي عملتموها ابتغاء وجه الله بما متّعناكم به من مسرّات وملذّات في الحياة الدنيا، حتى استنفدتم أجرها فيها، وصَفِيَت لكم أعمالُ الكفر والسوء حيث ادّخرنا لكم جزاءها ليوم القيامة.

وبيّن النبي ﷺ بعض أنواع الاستمتاع الذي يستمتع به الكفار جزاء حسناتهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطى بها في الدنيا ويُجزى بها في الآخرة. وأما الكافر فيُطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها**»[٢].

ومن الأدلة أيضاً ما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه استأذن على النبي ﷺ في بيته حين اعتزل عليه الصلاة والسلام نساءه، وهو حديث طويل، وشاهدنا فيه قول عمر: فرفعت رأسي في البيت، أي: بيت النبي ﷺ، فوالله ما رأيت فيه شيئاً يردّ البصر إلا أُهُباً ثلاثة، فقلت: ادعُ الله يا رسول الله أن يوسّع على

(١) الأحقاف: ٢٠.

(٢) أخرجه مسلم في صفة القيامة: باب جزاء المؤمن بحسناته في الدنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدنيا برقم (٢٨٠٨).

أمتك، فقد وسّع على فارس والروم وهم لا يعبدون الله. فاستوى جالساً ثم قال: «**أفي شكٍ أنت يا ابن الخطاب! أولئك قوم عُجّلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا**» الحديث[١].

فإن قال قائل: هل يخفّف عن الكفار من عذاب الآخرة بسبب حسناتهم تلك؟

والجواب: أنه لا يخفف، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾﴾[٢]. وأما بالنسبة للحسنات التي عملوها، فقد استوْفوا أجرها في الدنيا، فإذا قدِموا على ربهم لم يجدوا لها ثواباً. قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾[٤]. وسألت عائشة رسول الله ﷺ قالت: يا

---

(١) أخرجه مسلم في الطلاق: باب في الإيلاء واعتزال النساء وتخييرهن، برقم (١٤٧٩).

(٢) فاطر: ٣٦.

(٣) الفرقان: ٢٣.

(٤) النور: ٣٩.

رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يصِل الرحم ويطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: «**لا ينفعه، إنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[١].

(١) أخرجه مسلم في الإيمان: باب الدليل على أن من مات على الكفر لا ينفعه عمل، برقم (٣٦٥).

تعجيل الطيبات في حق بعض المسلمين

ذكرنا أن تعجيل الطيبات ليس مقصوراً على الكفار. فهناك ناسٌ من المسلمين أسرفوا على أنفسهم بالمعاصي والموبقات حتى غلبت على حياتهم، سوى نفحات من الخير كانت تسري عليها بين الفيْنة والفيْنة، فتقع منهم بعض أعمال البر.

فمن هؤلاء من تقضي إرادة الله تعالى بإثابتهم على أعمال البرّ في الحياة الدنيا. وأما أعمال السوء فيمسك عن مجازاتهم عليها بشيء من مكفّرات الذنوب في الدنيا، حتى إذا أفضَوْا إلى الآخرة، وافوْه تعالى بحسنات قد استوفوا أجرها، وسيئات موفورة لم ينقص منها شيء، فيؤمر بهم إلى النار، إلا أنهم لا يخلدون فيها لأنهم ماتوا على التوحيد.

لذلك كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم يتخوّفون من سَعة الأرزاق، وغَدْق الخيرات، وطول المسرّات

خشية أن تكون تعجيلاً لطيّباتهم في الحياة الدنيا.

ومما يؤثر في هذا الباب، ما رواه البيهقي عن عمر رضي الله عنه، أنه أُتي بفَرْوة كسرى فوضعت بين يديه، وفي القوم سراقة بن مالك بن جعشم، فألقى إليه سواري كسرى بن هرمز، فجعلهما في يده فبلغا منكبيه، فلما رآهما في يدي سراقة قال: الحمد لله سواري كسرى بن هرمز في يد سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي من بني مدلج.

ثم قال: اللَّهم إني قد علمت أن رسولك ﷺ كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك، وزَوَيت ذلك عنه نَظَراً منك له وخِياراً. ثم قال: اللَّهم إني قد علمت أن أبا بكر رضي الله عنه كان يحب أن يصيب مالاً فينفقه في سبيلك وعلى عبادك، فزَوَيت ذلك عنه نَظراً منك له وخياراً. اللَّهم إني أعوذ بك أن يكون هذا مكراً منك بعمر، ثم تلا: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾[1].

وروى البخاري أن عبدالرحمٰن بن عوف رضي الله عنه أُتي يوماً بطعامه، فقال: «قتل مصعب بن عمير وكان خيراً مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بُردة،

(١) السنن الكبرى (٦/٣٥٨).

وقتل حمزة وهو خير مني فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا بردة، لقد خشيت أن يكون قد عجّلت لنا طيباتنا في حياتنا الدنيا ثم جعل يبكي»[١].

➢ الصورة الثانية: وقد يوسع الله الرزق على عبده إكراماً له ومكافأة له على طاعته لربه.

فالتوسعة في الرزق قد تكون مكافأةً للعبد على طاعته لربه.

فهناك رجالٌ صبروا أنفسهم على طاعة الله والمسارعة في مرضاته، فيوسّع الله عليهم من رزقه، ويمدّهم من نعيم الدنيا إكراماً لهم، مع ما يدّخره لهم من نعيم في الآخرة.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾[٢].

فرتّب الله سبحانه على تقواه وطاعته: النجاة من الضيق، والتوسعة في الرزق.

وقوله ﷺ: «**إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة، يُعطى**

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز: باب الكفن من جميع المال، برقم (١٢٧٤).

(٢) الطلاق: ٢ ـ ٣.

بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة» وقد سبق[١].

وهذا الإكرام كما يسري على الفرد يسري أيضاً على المجتمع.

فالأمة التي تحرص على طاعة ربها في سرّها وجهرها، يوسّع الله عليها في رزقها ويمدّها بأسباب الرخاء والأمن. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾[٢]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٣].

ويوم أن تقلّ المعصية في الناس وتظهر فيهم طاعة الله تعالى، يبارك الله لهم في عَيْشهم وأرزاقهم، ويأمر الأرض أن تخرج لهم بركتها. كما في حديث عيسى عليه الصلاة والسلام حين ينزل إلى الأرض، ويعمُرُها الله سبحانه بالإيمان بعد قتل الدجال ومن معه من الكفار، ثم تطهير الأرض من رجس يأجوج ومأجوج، فحينها تخرج الأرض بركتها: «**فيقال للأرض**

---

(١) صفحة: (٦٥).

(٢) المائدة: ٦٦.

(٣) الأعراف: ٩٦.

أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابة[١] من الرمانة ويستظلون بقِحْفها[٢]، ويبارك في الرِّسل[٣]، حتى إن اللقحة[٤] من الإبل لتكفي الفئام[٥] من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ[٦] من الناس» الحديث[٧].

فتقوى الله والمسارعة في مرضاته هي من أكبر أسباب استحقاق النّعم واستزادة الخيرات واتساع الأرزاق.

---

(١) العصابة: هي الجماعة.

(٢) قحفها: ـ بكسر القاف ـ هو مقعر قشر الرمانة، شبهها بقحف الرأس وهو الذي فوق الدماغ.

(٣) الرسْل ـ بكسر الراء وإسكان السين ـ: اللبن.

(٤) اللقحة ـ بكسر اللام وفتحها ـ لغتان مشهورتان والكسر أشهر: هي القريبة العهد بالولادة، وجمعها لقح بكسر اللام وفتح القاف.

(٥) الفئام ـ بكسر الفاء ـ: هي الجماعة الكثيرة.

(٦) الفخذ: هم الجماعة من الأقارب، وهم دون البطن، والبطن دون القبيلة. قال ابن فارس: الفخذ هنا بإسكان الخاء لا غير، بخلاف الفخذ التي هي عضو فإنها تكسر وتسكن.

(٧) أخرجه مسلم في الفتن: باب ذكر الدجال وصفته برقم (٢١٣٧). وشرح غريب الحديث الذي بيّنته في الهوامش السابقة أفاده النووي رحمه الله في شرحه لمسلم (٦٩/١٨).

توضيح

قد يقول قائل: يلزم من قولكم: «أن التقوى سبب من أسباب توسعة الرزق على العبد»، أن يكون كل متقٍ غنياً، وأن يكون المتقون أغنى من الفجار، وهذا يخالف المشاهَد.

والجواب أن قولنا: «التقوى سبب من أسباب توسعة الرزق على العبد»، لا يلزم منه أن يكون كل متق غنياً. وإنما المراد أن العبد له حالتان: إما أن يكون مطيعاً لله أو عاصياً له. فإن كان عاصياً لله فسوف يقدّر عليه رزق كذا وكذا، وإن كان مطيعاً لله فسوف يقدّر عليه رزق أوسع من الرزق الأوّل. فالعبد في حالة تقواه موسّع عليه في رزقه بالنسبة لحالته وهو عاصٍ لله. والله سبحانه قد علم في الأزل ما سيؤول إليه حال عبده هذا من صلاح أو فساد، فقدّر عليه رزقه وِفق ما علمه من حاله.

وكذا قولنا أن التقوى سبب من أسباب زيادة الرزق، لا يلزم منه أن يكون المتقي أغنى من الفاجر.

وإنما يلزم هذا لو قلنا أن التقوى شرط في سعة الرزق، فحينها تكون سعة الرزق علامة على التقوى ودليلاً عليها، وهو قول باطل، لأن التقوى ليست شرطاً في سعة الرزق، فالعبد قد يوسّع عليه في رزقه وهو فاجر، تعجيلاً لطيّباته في الحياة الدنيا كما سبق وبيّنّا.

خصال التقوى الموجبة لسعة الرزق

التقوى سبب من أسباب زيادة الرزق عموماً، إلا أن هناك خصالاً من التقوى أدعى إلى زيادة الرزق من غيرها، وهي الخصال التي نصّ الشارع أنها تزيد في الرزق بخصوصها. وسنأتي بعون الله تعالى على بيان بعض هذه الخصال.

➢ الخصلة الأولى: صلة الأرحام:

ودليله قول النبي ﷺ: «**من أحبّ أن يُبسط له في رزقه ويُنسأ له في أثره فليصِل رحمه**»[(١)]. فالنبي ﷺ بيّن أن صلة الرحم سبب من أسباب زيادة الرزق، فمن قام بها بُسط له في رزقه، ومن لم يقم بها حُرم هذه البَسْطة.

وقد اختلف العلماء في زيادة الرزق هذه، هل هي على حقيقتها أم أنها مؤولة على معنى البركة في الرزق

(١) أخرجه البخاري في الأدب: باب من بسط له في الرزق برقم (٥٩٨٦)، ومسلم في البر والصلة: باب صلة الرحم برقم (٢٥٥٧).

ونحوها؟ والذي حَداهم إلى هذا الاختلاف أن ما ذُكر من زيادة الرزق في الحديث، يتعارض مع ما هو معروف من أن رزق الإنسان يكتب وهو في بطن أمه، فبالتالي لا يزيد ولا ينقص.

والجواب: أن كَتْب الرزق في بطن الأم، لا يلزم منه عدم الزيادة والنقصان. فالمَلك الموكّل بكتابة الأرزاق قد يؤمر بكتابة الرزق معلقاً على حالتين. أي: إن كان العبد واصلاً للرحم فرزقه كذا وكذا، وإن كان قاطعاً للرحم فرزقه دون ذلك، والمَلك لا يعلم ما سيؤول إليه حال هذا العبد، وإنما يَنتظر به وجود إحدى الحالتين. وهذا بالنسبة لعِلم المَلك، وأما بالنسبة لعلم الله، فالله سبحانه وتعالى يعلم في الأزل ما سيؤول إليه حال عبده، هل سيكون واصلاً للرحم أم قاطعاً لها، فيقدّر عليه رزقه من زيادة أو نقصان بما علم من حاله. فالزيادة إذاً هي زيادة حقيقية، والأصل أن تحمل ألفاظ النصوص على حقيقتها إلا إذا تعذّر ذلك فحينها تُؤول، والحَمْل على الحقيقة في مسألتنا غير متعذّر.

ثم لو قلنا بأن الزيادة مؤولة على معنى البركة، فالبركة هي زيادة حقيقية وليست وهْماً أو تخيلاً، فآل الأمر في النهاية إلى الحمل على الحقيقة، ولم يغنِ التأويل شيئاً.

➢ الخصلة الثانية: شكر الله:

ودليلها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾[1].

➢ الخصلة الثالثة: الاستغفار:

ودليله ما ذكره الله تعالى عن عبده ورسوله نوح عليه السلام مخاطباً به قومه: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾[2]، فرتّب على الاستغفار نعماً عظيمة من المَدَد بالمال والبنين وسائر مسرّات الحياة.

وروى أبو داود عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل همّ فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب**»[3].

---

(١) إبراهيم: ٧.

(٢) نوح: ١٠ ـ ١٢.

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة: باب في الاستغفار برقم (١٥١٨)، وابن ماجه في الأدب: باب الاستغفار برقم (٣٨١٩)، وأحمد في مسنده برقم (٢٢٣٤)، وهذا الحديث مختلف في صحته، إذ سكت عنه أبو داود، وهذا يعني أنه صالح للاحتجاج به عنده، كما صحّح إسناده أحمد شاكر في شرحه لمسند أحمد (٤/٢٢٣٤)، ولكن ضعّفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (٣٢٧)، وهذا الحديث هو في فضائل الأعمال التي يُتساهل في روايتها ولا يُتشدّد.

➢ الخصلة الرابعة: الاستعانة بالضعفاء:

ودليله ما رواه البخاري عن مصعب بن سعد قال: رأى سعد رضي الله عنه أن له فضلاً على من دونه، فقال النبي ﷺ: «**هل تُنصرون وتُرزقون إلا بضعفائكم**»(١). والمراد بهذا الحديث أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه رأى في نفسه أنه يفوق أصحابه بالشجاعة والبأس في الحرب، فأراد الزيادة من الغنيمة. فأعلمه النبي ﷺ أن سهام المقاتِلة سواء، فإن كان القوي يترجّح بفضل شجاعته، فإن الضعيف يترجّح بفضل دعائه وإخلاصه. وسبب الحديث وإن كان وارداً في الحرب، فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. فالاستعانة بالضعفاء في الحرب وغيرها مَدعاة إلى نزول الأرزاق، بفضل دعائهم وخشوعهم، والله أعلم.

➢ الخصلة الخامسة: التوكل على الله:

روى عمر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصاً وتروح بِطاناً**»(٢). فقوله ﷺ: «**تغدو خماصاً**»

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد: باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب برقم (٢٨٩٦).

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد: باب في التوكل على الله برقم=

أي: تخرج من أول النهار جياعاً ضامرة البطن، «**وتروح بطاناً**» أي: تخرج في آخر النهار ممتلئة البطون.

➢ الصورة الثالثة: وقد يوسّع الله الرزق على عباده استدراجاً لهم:

ومعنى هذه الصورة: أن الأمة إذا عصت أمر الله ورسوله، فإن الله سبحانه وتعالى يبتليها بألوان من العذاب التأديبي، كالقحْط وشَظَف العيش والأمراض والحروب، رجاء أن تتضرع إلى الله وترجع إلى طاعته. فإذا لم تتعظ الأمة بهذا التأديب، وأبَت التضرع إلى الله والرجوع إلى طاعته، فإن الله تعالى يبدّل ما بها من بؤس وضُرّ إلى يُسر ورخاء وعافية، عساها أن تتذكر فضل الله عليها فترجع إلى شكره وذِكره. فإذا لم تتذكر الأمة فضل الله عليها، بل استمرت في طغيانها وعدوانها، ولم ينفع معها تأديب ولا إكرام، فقد قضت سنة الله سبحانه في الأمم المعرضة عن الحق، أنهم إذا لم يتعظوا بالنّقم ثم لم يعتبروا بالنّعم، أن يُستدرجوا بمزيد من النّعم عقوبة لهم حتى يبقوا في غفلة عن الله، فتأتيهم منيّتهم وهم غافلون.

= (٢٣٤٤)، وابن ماجه برقم (٤١٦٤)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٩١١).

وهذه الصورة سمّيت استدراجاً، لأن القوم يظنون أن مدّ الله لهم بالنعم إنما هو لكرامتهم عليه، ولا يشعرون أنهم طُردوا عن بابه وأُبعدوا عن جَنابِه، وأنه يمدُّهم بهذه النعم ليزدادوا بُعداً عن الله والعِياذ بالله.

ودليل هذه الصورة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾[1]. فهذه الآية تبين سنّة الله التي ذكرناها، من ابتلاء القوم المُعرضين عن دعوة الرسل بالضُرّ في أموالهم وأبدانهم، وهو المراد بالبأساء والضراء، لعلهم يضّرّعون. فلما لم يَنْجَع معهم هذا التأديب، ابتلاهم الله بالنّعم بعد النّقم، وهو المراد بتبديل الحسنة مكان السيئة، فلم ينجَع معهم أيضاً. وإذا أتاهم من يعِظهم ويخوّفهم عذابَ الله، ويبيّن لهم أنما يُبتلون بالسيئة تارةً وبالحسنة أخرى حتى يرجعوا إلى الله ويتوبوا إليه، أجابوا بأنّ ما أصابهم في الحالتين إنما هو شأن الأيام، مرةً تكون لهم ومرةً عليهم، وكذا كان الشأن مع آبائهم من قبلهم. فهنا يحلّ عليهم عذاب الله وعقابه، لأنهم لا

(١) الأعراف: ٩٤، ٩٥.

إلى الطاعة يرجعون ولا بالابتلاء يعتبرون.

وهذا الأخذ الذي ذكره الله في هذه الآية، جاء تفصيله في آية الأنعام فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1]. فقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾... فيه تفصيل كيفية أخذ الله لهم، بأن يفتح عليهم النّعم من أوسع أبوابها حتى يستمروا في غفلتهم، فيأتيهم العذاب وهم لا يشعرون بدنوّه.

ومما يستدل به أيضاً على هذه الصورة، قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾[2]، يعني: أيظنّ هؤلاء المغرورون أن ما نعطيهم من الأموال والأولاد لكرامتهم علينا ومعزّتهم عندنا! كلا ليس الأمر كما يزعمون، بل إنما نفعل بهم ذلك استدراجاً وإملاء، ولهذا قال: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

---

(١) الأنعام: ٤٢ ـ ٤٤.

(٢) المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾[1].

والاستدراج كما يكون في حق الأمم، يكون في حق الأفراد أيضاً. فالمرء إذا عصى الله ورسوله، فإن الله يبتليه تارةً بالمصائب، وتارةً بالنّعم، حتى يتذكر ويرجع. فإذا بقي العبد في غفلته، واستمرَأَ معصيته، فإن الله تعالى يُعاقبه باستدراجه بمزيد من النعم حتى يبقى في غفلة عن ذكر الله، فتأتيه منيّته وهو على ذلك.

ودليل هذه الصورة ما أخرجه الإمام أحمد رحمه الله في مسنده، عن عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**إذا رأيت اللَّهَ يعطي العبدَ من الدنيا على معاصيه ما يحبّ فإنما هو استدراج**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١٧٨.

(٢) أخرجه أحمد: (١٤٥/٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٥٦١)، وفي السلسلة الصحيحة برقم (٤١٣).

➢ الصورة الرابعة: وقد يوسّع الله الرزق على عبده اختباراً له:

أي: إن الله سبحانه وتعالى قد يُنعم على عبده نعماً عظيمة، لا لمكافأته على عمل صالح، ولا لتعجيل طيّباته أو استدراجه، وإنما لمجرّد الاختبار، هل يكون العبد من الشاكرين لنعم الله عليه، أو من الجاحدين لها.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[١]، أي: نختبركم بالمصائب تارةً وبالنعم أخرى، فننظر من يشكر ومن يكفر، ومن يصبر ومن يقنَط، كما ذكر ابن كثير رحمه الله في تفسيرها[٢].

وقال تعالى في نبيّه سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾[٣]، أي: فلمّا أُحضر عرشُ بلقيس، ملكة سبأ، بين يديه بسرعة خارقة قال:

هذا من نعم الله علي ليختبرني أأشكر أم أكفر.

---

(١) الأنبياء: ٣٥.
(٢) التفسير (٣/١٧٤).
(٣) النمل: ٤٠.

فالإنعام في هذه الحالة هو لمجرّد الاختبار، وليس فيه دلالة على رضى الله تعالى عن عبده أو سخطه عليه.

➢ الصورة الخامسة: وقد يوسّع الله الرزق على عبده تأليفاً لقلبه:

والمراد بهذه الصورة أن الله سبحانه وتعالى يعلم في بعض عباده ضَعْفَ إيمانٍ، كما يعلم فيه حبّه للخير وتعلقه به. فإذا ابتُلي هذا العبد بمصيبة عظيمة لن يقوى على تحمّلها، وسيزداد إيمانه ضعفاً، فيصرفُ الله تعالى عنه هذا الابتلاء رحمة به، وتأليفاً لقلبه على الإيمان. وإنما نال العبد هذه الرحمة بما علم الله في قلبه من الخير، فأحبّ أن يجازيَه به.

وهذا العبد حين يُصرف عنه الابتلاء في أغلب الأحيان، ويرى إخوانه من المؤمنين يُبتلون في أنفسهم وأموالهم، المرّة بعد الأخرى، يظنّ أن هذا من عِظَم كرامته على ربه، ولا يشعر هذا المسكين أن الابتلاء إنما صُرف عنه لضعف إيمانه، وأصيب به غيره لقوة إيمانه.

ودليل هذه الصورة ما رواه الترمذي وابن ماجه عن سعد بن أبي وقاص قال: قلت: يا رسول الله، أي

الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صُلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رِقّة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**»(١).

ويستدل لهذه المسألة أيضاً بحديث سعد أيضاً: أن رسول الله ﷺ أعطى رهطاً وسعد جالس، فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجَبُهم إليّ، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأُراه مؤمناً. فقال: «**أو مسلماً**». فسكتّ قليلاً ثم غلبني ما أعلم منه، فعُدت لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأُراه مؤمناً. فقال: «**أو مسلماً**». ثم غلبني ما أعلم منه فعدتّ لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «**يا سعد، إني لأعطي الرجلَ، وغيرُه أحبُّ إليّ منه، خشية أن يكبّه الله في النّار**»(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد: باب ما جاء في الصبر على البلاء برقم (٢٣٩٨) وقال: حسن صحيح، وابن ماجه في الفتن برقم (٤٠٢٣)، وقال الألباني في صحيح الترمذي برقم (١٩٥٦): حسن صحيح.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان برقم (٢٧)، وكذا مسلم فيه: باب تألف قلب من يخاف على إيمانه برقم (٢٣٧).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ومُحصّل القصة أن النبي ﷺ كان يوسّع العطاء لمن أظهر الإسلام تألفاً. فلما أعطى الرّهْط وهم من المؤلفة، وترك جُعيلاً وهو من المهاجرين، مع أن الجميع سألوه، خاطبه سعد في أمره، لأنه كان يرى أن جُعيلا أحقّ منهم لِمَا اختبره منه دونهم، ولهذا راجع فيه أكثر من مرة. فأرشده النبي ﷺ إلى أمرين:

أحدهما: إعلامه بالحكمة في إعطاء أولئك وحرمان جعيل مع كونه أحبّ إليه ممن أعطى، لأنه لو ترك إعطاء المؤلّف لم يؤمَن ارتدادُه فيكون من أهل النّار.

ثانيهما: إرشاده إلى التوقّف عن الثناء بالأمر الباطن دون الثناء بالأمر الظاهر انتهى[1].

ويدخل في هذه الصورة أيضاً تأليف قلوب غير المسلمين.

فكما أن المسلم قد يُنعم الله تعالى عليه بالنّعم العظيمة تثبيتاً لقلبه على الإسلام، كذلك قد ينعم الله تعالى على من لم يسلموا تحبيباً للإسلام إلى قلوبهم. فقد أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية من غنائم حنين،

(١) فتح الباري (١/٨٠).

وكان قد شهدها مشركاً، فلم يزل يعطيه حتى أسلم. قال صفوان رضي الله عنه: والله لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إليّ، فما برِح يعطيني حتى إنه لأحبّ الناس إلي»[١]. وروى أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي ﷺ غنماً بين جبلين فأعطاه إياه. فأتى قومه فقال: «أيْ قوم أسلموا، فوالله إن محمداً ليعطي عطاء ما يخاف الفقر. فقال أنس: إنْ كان الرجل ليُسلِم ما يريد إلا الدنيا، فما يُسلم حتى يكون الإسلام أحبّ إليه من الدنيا وما عليها»[٢].

(١) أخرجه مسلم في الفضائل برقم (٢٣١٣).

(٢) أخرجه مسلم في المكان السابق.

حكمة الله في تضييق الرزق

وهذه الحكمة يمكن استشفافها أيضاً من خلال استعراضنا لجملة من الآيات والأحاديث، وإن كان قد مضى الإشارة إلى بعض صورها من خلال سرْدنا لحكمة الله في بسط الرزق. وتتجلى تلك الحكمة في صور عديدة منها:

➢ الصورة الأولى: قد يضيّق الله الرزق على عبده اختباراً له:

ويستدل لهذه الصورة بقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾[2]، أي: إن الله تعالى يختبر عباده

(١) الأنبياء: ٣٥.

(٢) البقرة: ١٥٥.

بقليل من الخوف والجوع، وذهاب بعض الأموال، وموت بعض الأحباب والأقارب، ونقصان ثمرات المزارع فلا تغلّ كعادتها، كل هذا وأمثاله مما يبتلي الله به عباده ليمتحن صبرهم، ولهذا قال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾. فليس النقص هٰهنا سخطاً على العبد، وإنما اختبار لصبره.

➢ الصورة الثانية: وقد يضيّق الله الرزق على عبده عقوبة له:

فإذا عصى العبدُ ربَّه بمعصية، فإن الله سبحانه وتعالى قد يعفو عنه فلا يعاقبه عليها في الدنيا ولا في الآخرة. وقد يُعجّل الله له عقوبَتها في الدنيا، فيبتليه ببعض المصائب والأحزان، تكفيراً لمعصيته حتى لا يعاقبه عليها في الآخرة.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾[1].

وروى الحاكم من طريق أبي جحيفة عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أذنب ذنباً في الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم أن يرجع**

(١) الشورى: ٣٠.

في شيء قد عفا عنه وستره. ومن أذنب ذنباً في الدنيا فعوقب عليه، فالله أعدل من أن يثنّي عقوبته على عبده مرتين»، قال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وله شاهد بزيادة ألفاظ وتلاوة من القرآن فيه»[(١)].

ثم ذكر الشاهد ولفظه: عن علي رضي الله عنه قال: ألا أخبركم بأفضل آية في كتاب الله تعالى حدثنا بها رسول الله ﷺ؟ «﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ **وسأفسرها لك يا علي: ما أصابكم من مرض أو عقوبة أو بلاء في الدنيا فبما كسبت أيديكم، والله تعالى أكرم من أن يثني عليهم العقوبة في الآخرة، وما عفا الله عنه في الدنيا فالله أحلم من أن يعود بعد عفوه»**[(٢)].

---

(١) الحاكم (٣٨٨/٤) ووافقه الذهبي على تصحيحه.

(٢) أخرجه أحمد (٨٥/١) والحاكم (٣٨٨/٤)، وحسّن إسناده شاكر رحمه الله في شرحه للمسند (٦٤٩/٢). وأورده الهيثمي في المجمع (١٠٣/٧ ـ ١٠٤) ونسبه لأحمد وأبي يعلى وقال: وفيه أزهر بن راشد وهو ضعيف. قال شاكر رحمه الله معقباً: ولكن رواية الحاكم في المستدرك ليست من هذه الطريق، بل من طريق أبي جحيفة عن علي، وهي رواية مختصرة، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

وروى ابن جرير بإسناده عن أيوب قال: قرأت في كتاب أبي قلابة قال: نزلت: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ وأبو بكر رضي الله عنه يأكل فأمسك فقال: يا رسول الله، إني لراءٍ ما عملت من خير أو شر؟ فقال: «**أرأيت ما رأيت مما تكره فهو من مثاقيل ذرّ الشر، وتدّخر مثاقيل الخير حتى تُعطاه يوم القيامة**». قال أبو إدريس: فأرى مصداقها في كتاب الله قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۝٣٠﴾[(١)].

وروى أبو سعيد الخدري وأبو هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب المسلم من نَصَب[(٢)] ولا وَصَب[(٣)] ولا همّ ولا حزن ولا أذى ولا غمّ حتى الشوكة يُشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه**»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (١٣/٣٢) وقال رحمه الله: حدث هذا الحديث الهيثم بن الربيع فقال: فيه أيوب عن أبي قلابة عن أنس، أن أبا بكر كان جالساً عند النبي ﷺ فذكر الحديث، وهو غلط، والصواب عن أبي إدريس.

(٢) النَصَب: التّعب.

(٣) الوَصَب: الوجع والمرض، والجمع: أوصاب.

(٤) أخرجه البخاري بلفظه في أول المرضى برقم (٥٦٤١)، ومسلم في البر بنحوه برقم (٢٥٧٣).

والمصيبة التي يُبتلى بها العبد كفارة لذنبه، قد تكون في بدنه، وقد تكون في ماله.

وممّا يستدل به لهذه المسألة ما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزيد في العُمُر إلا البرّ، ولا يرد القدَر إلا الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه**»(١).

فكما أن الطاعات لها أثر كبير في تكثير الرزق، وقد سبق بيان دليلها، كذلك المعاصي لها أثر كبير في تضييق الرزق.

ومن خلال تتبّع النصوص أو بعضها، يلاحظ المرء أن المصائب التي يُبتلى بها الناس بسبب معاصيهم تكون متلائمة مع هذه المعاصي. فإن وقعت المعصية في البدن، كانت المصيبة بدنية، وإن وقعت المعصية في المال، كانت المصيبة مالية وهكذا.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢٨٠)، وابن ماجه في الفتن: باب العقوبات برقم (٤٠٢٢)، والحاكم (١/٤٩٣) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي بقوله: صحيح، وقال الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٣٢٤٨): حسن دون قوله: «وإن الرجل...» انتهى. فشاهدنا من الحديث مختلف في صحته، ولكن ليس هو الحديث الوحيد في المسألة، بل للمسألة أدلة أخرى سنذكر بعضها بعون الله تعالى.

ومن النصوص التي تشير إلى هذه المسألة ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يُعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاعُ التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضَوْا. ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسِّنين وشدّة المئونة وجَوْر السلطان عليهم. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا. ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدواً من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم. وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيّروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[1].

ففي هذا الحديث نلاحظ أن انتشار الفاحشة، والمراد بها الزنا أو اللواط، وهي معصية بدنية، كانت عقوبتها فشوّ الطاعون والأمراض المستعصية، وهي عقوبة بدنية أيضاً. وأما نقص المِكيال والميزان أو منع زكاة الأموال، وهي معاصي في المال، كانت عقوبتها

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن برقم (٤٠١٩)، وحسنه الألباني في صحيح ابن ماجه برقم (٣٢٤٦).

أيضاً في المال، كالأخذ بالسّنين، والمراد به القحط والجَدْب، أو حَبْس المطر الذي يفضي أيضاً إلى القحْط والجدب.

ومن هنا كان السلف رضي الله عنهم إذا نزلت بأحدهم مصيبة، حاول أن يتدبّر سبب نزولها به: هل هي اختبار لصبره، أم رفع لدرجته، أم عقوبة على معصيته؟ لذلك تراه يراجع أحواله ليتذكر: هل وقع في مخالفةٍ شرعية فعوقب بسببها؟ فإن تبيّن أنه وقعت منه مخالفة بل مخالفات، نظر في أيِّها كانت سبب مصيبته التي حلّت به من خلال الملاءَمة بينهما.

فهذا محمد بن سيرين سيّد من سادات التابعين أخذ زيتاً بأربعين ألف درهم، فوجد في زِقّ منه فأرة، فظنّ أنها وقعت في المِعْصَرة، وصَبَّ الزيت كله، أي لأنه تنجّس بموت الفأرة فيه. وكان يقول: إني ابتليت بذنب أذنبته منذ ثلاثين سنة. ثم بيّنه فقال: قلت مرةً لرجل: يا مفلس، فعُوقِبت[1]، أي: عيّر رجلاً بفقره وإفلاسه فعوقِب به، إذ رَكِبه الدَّيْنُ بعد صبّ الزيت حتى حُبس بدَيْنه. قال أبو سليمان الداراني وبَلغَه هذا فقال: قلّتْ ذنوب القوم فعَرفوا من أين أُتُوا، وكثرت ذنوبُنا فلم

(١) سير أعلام النبلاء (٦١٦/٤، ٦١٣).

ندرِ من أين نُؤتى»[١].

وذاك الحافظ أبو الحسن القطّان رحمه الله، الذي قال عنه ابن فارس في أماليه: سمعته يقول: أُصبْت ببصري، وأظنّ أني عوقبت بكثرة كلامي أيام الرّحلة. قال الذهبي رحمه الله معقّباً: صدق والله، فقد كانوا مع حسن القصد، وصحة النيّة غالباً، يخافون من الكلام، وإظهار المعرفة والفضيلة. واليوم يُكثرون الكلام مع نقص العلم وسوء القصد، ثم إن الله يفضحهم، ويلوحُ جهلهم وهواهم واضطرابهم فيما علموه، فنسأل الله التوفيق والإخلاص[٢].

➢ الصورة الثالثة: وقد يضيّق الله الرزق على عبده رحمة به:

والمراد بهذه الصورة أنّ من الناس من يكون فقيراً، ولكنه محافظ على طاعته لربه قائم بحقوقه عليه. ويعلم الله من حال هذا العبد أنه إذا رزقه مالاً فَسَد دِينُه، وانقلبت طاعته إلى معصية، وشكره إلى نكران، وتواضعه إلى علوّ واستكبار. فيَزوي الله عنه سَعَة الرزق

(١) السير (٦١٦/٤).

(٢) السير (٤٦٤/١٥).

رحمة به. وإنما صرف الله تعالى عنه هذه الفتنة، دون غيره ممن ابتُلِي بها، إيثاراً له، لما علم في قلبه من الخير واستحقاقه لهذه الرحمة.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿۞ وَلَوۡ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزۡقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٖ مَّا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرُۢ بَصِيرٞ ٢٧﴾[١].

➢ الصورة الرابعة: وقد يضيّق الله الرزق على عبده ادّخاراً لأجره:

فإن العبد إذا كان صالحاً، وأُعطي في هذه الدنيا كلَّ ما يتمنّاه من مال وولد وصحة وعافية، نَقص نعيمُه في الآخرة، فلا يكون أجرُه فيها كمن شابَهَه في الصلاح والعبادة، غير أنه حُرِم من مُتع الحياة الدنيا.

ودليل ذلك ما رواه عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجّلوا ثلثي أجرهم من الآخرة، ويبقى لهم الثلث. وإن لم يصيبوا غنيمة تمّ لهم أجرهم**»[٢].

---

(١) الشورى: ٢٧.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة برقم (١٩٠٦).

وروى خباب بن الأرتّ رضي الله عنه قال: «هاجرنا مع رسول الله ﷺ، نبتغي وجه الله، فوقع أجْرُنا على الله. فمنّا من مات لم يأكل من أجره شيئاً. منهم مصعب بن عمير، قتل يوم أحد فلم يوجد له شيء يكفّن فيه إلا نَمِرة[١]، فكنّا إذا وضعناها على رأسه خرجت رِجلاه، وإذا وضعناها على رجليه خرج رأسُه، فقال رسول الله ﷺ: «**ضعوها مما يلي رأسَه واجعلوا على رجليه الإذخَر**». ومنا من أيْنَعت[٢] له ثمرته فهو يهدِبها[٣]»[٤].

فقول خباب رضي الله عنه: «فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً»، أي: من عَرَض الدنيا، أفاده الحافظ ابن حجر رحمه الله ثم تابع قائلاً: **فمنهم من مات قبل الفتوح** كمصعب بن عمير. **ومنهم من عاش إلى أن فتح عليهم**، ثم انقسموا: فمنهم من أعرض عنه وواسى به المحاويج أولاً فأولاً بحيث بقي على

---

(١) النمرة: كساء ملوّن من صوف.

(٢) أينعت: أي نضجت وأدركت.

(٣) يهدبها ـ بفتح الياء وضم الدال وكسرها لغتان ـ: أي يقطفها ويجتنيها، وهذه استعارة لما فتح الله عليهم من الدنيا وتمكّنوا فيها. أفاده النووي رحمه الله في رياض الصالحين ص (٢١٧).

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز برقم (١٢٧٦) وكذا مسلم فيه برقم (٩٤٠).

تلك الحالة الأولى، وهم قليل منهم أبو ذر، وهؤلاء ملتحقون بالقسم الأول. ومنهم من تبسّط في بعض المباح فيما يتعلق بكثرة النساء والسّراري أو الخدم والملابس ونحو ذلك ولم يستكثر، وهم كثير ومنهم ابن عمر. ومنهم من زاد فاستكثر بالتجارة وغيرها مع القيام بالحقوق الواجبة والمندوبة، وهم كثير أيضاً منهم عبدالرحمٰن بن عوف. وإلى هذين القسمين أشار خبّاب. فالقسم الأول وما التحق به، توفّر له أجره في الآخرة. والقسم الثاني مقتضى الخبر أنه يُحسَب عليهم ما وصل إليهم من مال الدنيا من ثوابهم في الآخرة. ويؤيده ما أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو رفعه: «**ما من غازية تغزو فتغنم وتسلم إلا تعجلوا ثلثي أجرهم**» الحديث. ومن ثمّ آثر كثير من السلف قلة المال وقنعوا به، إما ليتوفر لهم ثوابهم في الآخرة، وإما ليكون أقل لحسابهم عليه. انتهى[(١)]

ومن هنا كان النبي ﷺ يفضّل من العيش الكفاف، ويدعو به لنفسه وأهل بيته، كما روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «**اللَّهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**»[(٢)]. قال

(١) فتح الباري (٢٧٨/١١).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق بنحوه برقم (٦٤٦٠)، ومسلم في الزكاة بلفظه برقم (١٠٥٥).

القرطبي رحمه الله: معنى الحديث أنه طلب الكفاف، فإن القوت ما يقوت البدن ويكفّ عن الحاجة، وفي هذه الحالة سلامة من آفات الغنى والفقر جميعاً والله أعلم[١].

وقال ابن بطال رحمه الله في شرحه: فيه دليل على فضل الكفاف وأخذ البُلغة من الدنيا، والزهد فيما فوق ذلك، رغبة في توفّر نعيم الآخرة، وإيثاراً لما يبقى على ما يفنى، فينبغي أن تقتدي به أمته في ذلك»[٢].

كما حضّ النبي ﷺ أمته على طلب الكفاف، والقناعة به، فقال عليه الصلاة والسلام: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً وقنّعه الله بما آتاه**»[٣].

(١) و(٢) ذكرهما الحافظ في الفتح (٢٩٣/١١).

(٣) أخرجه مسلم من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص برقم (١٠٥٤).

الخاتمة

وبعد هذا كله يتبين لنا أن ضيق الرزق ليس هواناً على الله، ولا سعة الرزق فضيلة عنده، كما كان العرب وغيرهم يعتقدون في جاهليتهم. وإنما الذي يدل على الفضيلة والرضى هو: الإيمان، فمن أعطاه الله الإيمان وثبّته عليه، فهو الدليل على محبة الله له ورضاه عنه.

فالله نسأل أن يرزقنا الإيمان، ويثبتنا عليه، ويرضى عنا، إنه خير مسؤول.